موسيقى

في لقاء مع «العربي الجديد»، يكشف عازف العود الفلسطيني تيسير إلياس عن ملامح رحلته مع التعلم الموسيقي، وعن الظروف المحيطة التي هيأته لإتقان العزف على البزق والساز والرق والطبلة والبيانو، مع تخصص بآلة العود، ليكون أصغر «صوليست» للآلة في فلسطين

تيسير إلياس مرّةً على العود

هيثم أبوزيد

فوجئ الجمهور المحتشد في مسرح معهد محمود درويش في مدينة الناصرة الفلسطينية بطفل لم يتجاوز عمره الثماني سنوات يحمل عوداً صغيراً يتناسب مع جسده النحيل. دهش الحضور حين بدأ العواد الطفل في عزف مقطوعة «البنت الشلبية» للأخوين رحباني، بثقة وإتقان، وضجت القاعة بالهتاف والتصفيق، وذاق الطفل - للمرة الأولى - طعم الاستواء على خشبة المسرح، والعزف العلني أمام جمهور متذوق لا يتأخر رد فعله تجاه ما سمع.

كان الموقف طاقة تشجيعية دافعة إلى استمرار الطفل تيسير إلياس في رحلة التحصيل الموسيقي التي بدأها مبكراً برعاية كاملة من والده، الذي يعمل محامياً وكاتب عدل. لكنه، في الوقت عينه، أحد أبرز هواة الموسيقى وآلة العود، ليس في الناصرة وحدها، بل في عموم فلسطين. في لقاء مع «العربي الجديد»، يكشف العازف الشاب الذي لم يتجاوز عمره 18 عاماً عن ملامح رحلته مع التعلم الموسيقي، وعن الظروف المحيطة التي هيأته لإتقان العزف على البزق والساز والرق والطبلة والبيانو، مع تخصص أول بآلة العود، ليكون أصغر «صوليست» للآلة في فلسطين.

بين الأعواد

ولد تيسير إلياس بمدينة الناصرة عام 2006، وتلقى تعليمه الأوَّلي، من صف الروضة وحتى إنهاء المرحلة الثانوية، في المدرسة المعمدانية بالمدينة. نشأ في بيئة موسيقية وفّرها والده جميل إلياس الذي يهوى الموسيقى الشرقية، كما يهوى اقتناء الأعواد النفيسة التي صنعها أعلام الصناع العرب خلال القرنين الماضيين. يقول تيسير إلياس: «فتحت عيني على مجموعة نادرة من الأعواد الشامية والحلبية والمحلية التي جمعها أبي خلال أكثر من 40 عاماً، وبدأ إدراكي يتكون وحولي هذه التحف، فكان من الطبيعي أن أقع في حب العود. ما زلت أذكر، ولي من العمر ربما ثلاث سنوات، كيف لحق بي والدي فزعاً وأنا أركض حاملاً أثمن عودين عنده: عود عبده جورجي نحّات (دمشق، 1927)، بيد، وعود ميشيل خوام (حلب، 1943)، باليد الثانية، فأنقذهما من يدي قبل لحظة واحدة من وقوع الكارثة.

حين بلغ تيسير إلياس عامه السابع، سجله والده ضمن تلاميذ آلة الكمان، إلا أن الطفل وجد في نفسه ميلاً إلى العود والإيقاع، فصارح أباه برغبته فلم يمانع. التحق إلياس بمعهد العازف والمعلم كميل شجراوي في الناصرة، وتتلمذ عليه أربع سنوات متتاليات. يقول: «علمني أستاذي أساسيات وتقنيات العزف على الآلة، وأسرار تبادل وظائف اليدين في العزف بالريشة والعفق بالأصابع، فتأسست عنده كما ينبغي، ولم تنقض السنوات الأربع إلا وأنا أتقن عزف لونغات سريعة ومعقدة. وفي السنة الخامسة التحقت بمدرسة (كارم مطر للموسيقى) في مدينتي، حيث تتلمذت على الأستاذ إميل بشارة في المرحلة الإعدادية، الذي كان له الفضل في انتقالي من طالب إلى عازف وإطلاقي إلى الأعلى. كان يشجعني قائلاً: حدودك السماء».

علامات كاملة

بالرغم من المستوى التقني العالي الذي وصل إليه تيسير إلياس وأمكنه من العزف أمام الجمهور، ونيل الاستحسان والإعجاب والتشجيع، إلا أنه لم يقع في فخ الرضا عن النفس أو الاكتفاء بانبهار المحيطين به. يوضح قائلاً: «في المرحلة الثانوية انتسبت لكونسيرفتوار (بيت الموسيقى) في مدينة شفا عمرو المجاورة، حيث تلقيت علومي النظرية في تاريخ الموسيقى العالمية والموسيقى النظرية ونظرية المقام، إلى جانب تعلم تقنيات العزف على آلة البيانو لدى الأستاذ فادي ديب، الذي كان له الفضل الأكبر في فتح آفاقي على موسيقات العالم وعلى التفكير الموسيقي متعدد المسارات، فصار بإمكاني أن أعزف على العود مرة دور اليد اليمنى لمعزوفة مكتوبة للبيانو، ومرة دور اليد اليسرى، وصارت لدي فكرة عن نظريات تعدد الأصوات (البوليفوني) وتوافق الأصوات (الهارموني)».

يضيف: «رافقني أستاذي إميل بشارة في التحضير لامتحانات الثانوية العامة بتخصص موسيقى بمستوى عشر وحدات من أصل مجموع 24، خمس منها في الموسيقى النظرية وخمس عملية في العزف على آلة العود، وحصلت على علامة 100% في الامتحانين. تخرجت من المعهد بعدما قدمت حفل التخرج (رسيتال)، حضره جمهور من الأهالي والمعلمين والطلاب في الكونسيرفتوار، وكان لي من العمر آنذاك 17 عاماً».

نشأ في بيئة موسيقية وفّرها له والده (من الفنان)

بعدما عزف إلياس على العود أمام الجمهور للمرة الأولى وهو في الثامنة، توالت عليه الدعوات للعزف، في المدرسة أولاً، ثم في مؤتمرات عقدت في الناصرة، ثم على المسارح المحلية في مناسبات الأعياد. ومع التقدم، شارك في مسابقة سنوية للعزف على آلة العود، حاز فيها الجائزة الأولى التي اعتبرها أوّل حصاد مادي يجنيه، بعد قرابة سبع سنوات من الجد والاجتهاد. كانت الجائزة كافية لدفع أقساط التعليم بالمعهد لسنة كاملة.

يقر إلياس بأنه كان محظوظاً بالبيئة الفنية التي أحاطت به في المنزل والمدرسة وفي مدينة الناصرة. يتذكر الدور الكبير لوالده صاحب الاهتمامات الموسيقية ومكتبته المقروءة والمسموعة. يقول: «رافقني أبي في تمريناتي البيتية الأولى، واهتمّ بأن أصل إلى الدرس التالي وقد طويت صفحة الدرس السابق، لأن التعليم الموسيقي مبني على تراكم المعرفة النظرية والحركية في آن، ولن تقدر أن تبلغ الدرس العاشر ما لم تهضم الدروس التسعة الأولى وتؤدِيها وكأنها جدول ضرب العدد ثلاثة. كذلك لم يقبل أبي أن أبدأ بتعلم العود إلا وفي يدي أحسن عود يناسب حجمي. فكلف المعلم الراحل كميل مويس، شيخ صناع فلسطين، بصنع عود خصيصاً لي، وكتب في بطن قصعته: (رمز محبة تنتقل من جيل إلى جيل). حوى العود الصغير كل خصائص العود الاحترافي بلا استثناء، ما عدا الحجم الذي جاء مناسباً لطفل في السابعة لا يتجاوز طوله متراً واحداً. ولم يكتف والدي بذلك، بل أوصى على مفاتيح ميكانيكية لتسهيل عملية ضبط وتسوية الأوتار (الدوزان)؛ وكذلك طلب أوتاراً احترافية هي الأجود في العالم، وأرشدني كيف (أدوزن) الأوتار بسهولة في غيابه، كي لا تتعطل التمرينات اليومية. ثم كانت مدرستي حاضنتي الثانية التي شجعتني ورعتني ويسرت لي أجهزة الصوت اللازمة للعروض وتجهيزات المسرح بمعداته، ونظمت أنشطة موسيقية لتتيح لي ولأقراني من طلاب الموسيقى اعتلاء المسرح المدرسي لتقديم فننا أمام جمهور زملائنا ومعلمينا».

> التعليم الموسيقي مبني على تراكم المعرفة النظرية والحركية
>
> أتاحت لي مدينة الناصرة فرصاً ما كنت لأحظى بها في مكان آخر

لم يكن غريباً أن تكون مدينة الناصرة راعية لموهبة ابنها تيسير إلياس. تاريخ المدينة مع الثقافة والفنون، ولا سيما الغناء والموسيقى، يقطع بأنها لا يمكن أن تتجاهل موهبة استثنائية متمثلة في صبي قرّر أن يمنح سنوات اللهو واللعب إلى الدرس والتمرين. يوضح إلياس أنه «أتاحت لي المدينة فرصاً ما كنت لأحظى بها في مكان آخر: شاركت في كونسيرت من ألحان الموسيقي بليغ حمدي، عازفاً على العود مع الفرقة الماسية النصراوية، بقيادة أستاذي كميل شجراوي، الذي دعاني للعزف المنفرد، ولي من العمر 15 عاماً فقط، بمرافقة الفرقة الموسيقية عازفاً وحيداً على العود.. كانت الناصرة هي المنطلق، ولقد عرض البرنامج نفسه على مسارح أخرى في مدن مختلفة، كما دعيت لأشارك في نشاطات موسيقية نظمت في المدن الكبرى، مثل (مهرجان العود في القدس)، مع مجموعة من الشباب الموسيقي الصاعد، وحصدت الجائزة الأولى متفوقاً على 25 عازفاً. كذلك، حصلت أخيراً على منحة الامتياز في الموسيقى العربية من (صندوق شاريت)، الذي يقدم سنوياً منحاً دراسية لطلاب الموسيقى على كل الآلات، الغربية منها والشرقية».

الذكاء الاصطناعي والموسيقى... ناقوس الخوف على الإبداع

علي موره لي

«نستطيع قطع كل الطرق الفرعية إن أردنا، نشاهدُ الحقول والسماء تتبدّل وتتأرجح يا عزيزي. نترك الريح تقودنا من دون وجهة، كل القصص التي أحكيها مرّات؛ ما هي سوى تأملات». بصوت حاد كما لو أتى صادراً عن الحنجرة، وبالاستعانة ببعض المؤثرات الغنائية الأكثر شيوعاً في لون موسيقى الريف الأميركي، الكونتري، مثل صفير «النبرة الحادة» Falsetto تُسمَع النجمة الأميركية تيفت ميريت Tift Merritt وهي تغني تلك الأبيات، يرافقها الدولاب الهارموني المتكرر Riffs المعهود على الغيتار الأكوستي، مع إيقاع الدرامز متوسط السرعة وبعض من المؤثرات الإلكترونية ترسم للأذن في الخلفية مشهدية سمعية شاعرية.

يبقى أن الأغنية أعلاه لم تكتبها الفنانة ولم تغنّها قط، وإنما بثّها موفّر خدمة توليد الأغاني بتقنية الذكاء الاصطناعي المعروف باسمه التجاري أوديو Udio باعتباره جزءاً من اختبار أجراه صحافي يعمل مع وكالة رويترز للأنباء، بأن لقّن التطبيق بواسطة الكيبورد وصفاً لغوياً مستلهماً من أغنية لميريت، كانت قد راجت أخيراً على سبوتيفاي بعنوان Travelling Alone، ليولّد الحاسوب مقطعاً غنائياً لمدة 35 ثانية، اختار له عنوان Holy Grounds.

أتى الاختبار جزءاً من مقال نُشر على الموقع الإلكتروني للوكالة أول شهر أغسطس/ آب الحالي، يرصد أبعاد المعضلة القانونية وتبعاتها التي باتت تؤرق كلاً من الفنانين وشركات تسجيل الموسيقى إزاء مسألة حقوق الإنتاج الفكري والفنّي، وذلك غداة انبلاج واقع تكنولوجي جديد فرضه الذكاء الاصطناعي ونماذجه التوليدية البكر، سواء تلك التي تُولّد النصوص اللغوية أو الصور الثابتة والمتحركة، وفي السياق ههنا، الأغاني.

هكذا، بات في مقدور أي مستخدم استحضار نجوم غناء عالميين، بإعادة تركيب رقميٍّ لأصواتهم وأساليب عزفهم وغنائهم وبصمة أغانيهم الخاصة من خلال التطبيقات المتوفرة مشاعاً على الإنترنت، فضلاً عن توليد نصوص كلماتها وأجوائها السمعية والبصرية، بدقة تبدو في كثير من الأحيان مطابقة للأصل تطابقاً يمكن أن يخدع الكثيرين. إلا أن تيفت ميريت كان لها رأي مخالف؛ إذ صرّحت لـ«رويترز» بتحدٍّ نابع عن أنا الفنان معلّقةً عقب سماعها النسخة الشبيهة بأغنيتها Travelling Alone التي ولّدها تطبيق أوديو، بأن المقطع المستحضر حاسوبياً «لم يصل ولا إلى أي مستوى قد يدنو من المعايير الفنية والأدائية التي تستند إليها أغانيها»، واصفةً الأغنية الاصطناعية Holy Grounds بأنها ليست سوى «سرقة».

> في مقدور أي مستخدم استحضار أي فنان بإعادة تركيب رقمي لصوته

المغنية الأميركية تيفت ميريت (تيري وايات/ Getty)

مع ذلك، تبقى عيون المراقبين على مسار التطور التقني المتسارع الذي تسير عليه تلك التكنولوجيا الثورية، وما إن كانت ستشكّل عاجلاً أم آجلاً تهديداً مباشراً لإرث العديد من الفنانين حول العالم، لن يوفر أحداً منهم، لا من رحل وحفظه أرشيف التاريخ وسجّلته الذاكرة الجمعية، ولا من لا يزال حيّاً يرزق، يقدم العروض ويُصدر الألبومات.

من هنا، كتبت كوكبة من النجوم ومن بينهم ميريت، إبريل/نيسان الماضي، ضمّت أسماءً من الجيل الجديد مثل بيلي آيليش ونيكي ميناج، ومخضرمين من أمثال ستيفي وندر، رسالة مفتوحة، أعربوا من خلالها عن قلقهم وخوفهم من أن إطلاق يد شركات الذكاء الاصطناعي لتدريب مولّداتها على نتاجاتهم الفنية من شأنه أن «يخرّب الإبداع» ويُحيِّد العنصر البشري فيه.

كانت كُبريات علامات التسجيل الموسيقية العالمية قد انضمت بدورها إلى الحملة. ولقد رفع عدد منها دعاوى قضائية ضد التطبيقين الأكثر تداولاً، سونو وأوديو، استناداً إلى قوانين حماية الملكية الفكرية والإبداعية المتوفرة. على صعيد موازٍ، كان من الطبيعي أن تتم المطالبة أيضاً بتغيير التشريعات والقوانين الحالية سواء على مستوى الدول أو المنظومات الإقليمية والدولية، بقصد الاستجابة إلى المتغيرات التكنولوجية.

كان الاتحاد الأوروبي أول من تصدّى لتلك القضية، فصادق برلمانه في شهر مارس/ آذار الماضي على آليات تشريعية تحت اسم AI Act، تنظم عمل الشركات الموفّرة لميزة الذكاء الاصطناعي لكي تضمن من الناحية القانونية امتثال الشركات لقانون الحقوق الملكية الفكرية الأوروبي، وذلك من خلال الالتزام بالشفافية حيال جميع المعلومات والبيانات الدالّة على المصادر الأصلية التي تدرّبت عليها النماذج التوليدية. المأمول أن تؤدي مثل تلك الآليات، إن جرى تطبيقها بصورة فعالة إلى تقييد المواد السمعية المولّدة صناعياً ضمن نطاق «المنتجات المقلّدة»، فلا تسمح بأن تطرح منتجاً قابلاً للتسويق والاستهلاك يكون بديلاً عن المنتوجات السمعية الأصلية.

لئن أثار القانون الأوروبي الجديد حماسة شركات الإنتاج الفني ولقي ترحيباً واسعاً لدى أوساط المشتغلين بالصناعة الموسيقية بوصفه خطوة أولى ونموذجية يُمكن أن تُعمم على الفضاء المعولم، يبقى رد الفعل حيال نجاعته بحدود التفاؤل الحذر. على الأخص إذا ما قورن بتجارب سابقة، عندما أسند إلى كل دولة من دول الاتحاد تطبيق التشريع على حدة، كما حدث في أعقاب إصدار التوجيه المتعلق بحقوق الملكية سنة 2019. حينها، وعلى الرغم من أن الموافقة عليه قد تمت بالإجماع، إلا أن مديات تطبيقه تراوحت بتفاوت بين دولة أوروبية وأخرى.